التصوف في نظر الثعالبي

الأستاذ:مكي عبد الكريم
جامعة تلمسان

تسعى هذه المداخلة إلى الوقوف على علم من أعلام الفكر الصوفي في الجزائر،الذي عاش في القرن التاسع الهجري (9هـ) إنّه الشيخ العالم الرباني سيدي عبد الرحمن الثعالبي ،الذي تشبّع بالفكر الصوفي ،ووضّح كثيرا من معالمه وبيّن كثيرا من أسراره في كتابه المسمى» الجواهر الحسان في تفسير القرآن» والذي يعد بحق نموذجا حيا لمعرفة آراء المتصوفة، والاستشهاد بكثير من آرائهم النيرة لتقويم سلوك سالك الطريق إلى الله ....

فالتصوف في نظر العارفين هو مراقبة الله في السر والعلن بعيدا عن الأنظار،والوقوف على أحكام الشرع والتقيد بها،والمجاهدة الدائمة لتطهير القلب من سخائم الشهوات والأهواء، والأمراض الخفية التي تبعد السالك عن الله عزّ وجلّ. لا مصطلحات وشعارات أو أقوالا يرددها السالك..

والتصوف في نظر الثعالبي فكر قائم على التفكر، وذلك أن الإنسان إذا تفكر، علم، وإذا علم، عمل.

فالتفكر نعت كل طالب، وثمرته الوصول بشرط العلم، ثم فكر الزاهدين: في فناء الدنيا، وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهدا، وفكر العابدين: في جميل الثواب، فيزدادون نشاطا ورغبة فيه، وفكر العارفين: في الآلاء والنعماء فيزدادون محبة للحق سبحانه.

ومن ثم كان لزاما على المتصوف أن يتقيد بضوابط الشرع ،وأن تتشرب روحه حقيقة التصوف ،وأسراره.

لا جرم أنّ الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، يعدّ من رواد مدرسة التصوف المعتدلة التي جنحت إلى تتبع آثار السلف الصالح في الأخذ بما جاء به الشرع.حيث التصق اسمه بالزهد والتصوف كما التصق اسم ابن رشد بالفلسفة،وابن خلدون بالتاريخ وعلم الاجتماع.

لقد كان الشيخ معدودا في كبار العلماء، مشهورا بإجابة الدعاء، معروفا بالكرامات، مقدما في صدور الزهاد، معرضا عن زخرف الدنيا،له أخبار جليلة، وكرامات عجيبة مشهورة، ممن جمع له العلم والعمل، وألقي عليه القبول من

الخلق، شديد الهيبة، عظيم الوقار، كثير الخشية، طويل التفكر والاعتبار.

أماّ مصادر الثعالبي الصوفية تتمثّل في الأخذ من كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وما صحّ عن سلف الأمة.وفي هذا الصدد يقول الإمام الجنيد: «علمنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم في علمنا. وقال أيضا،» الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام. (1)

ويضيف أحد أعلام الصوفية قائلا:» لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه صلى الله عليه وسلم في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء، يضل من حيث أنه مهتد «.(2)

هذا هو التصوف الحقيقي الذي نهجه أسلافنا الأوائل،وورثه من بعدهم الخلف الذين عملوا بمقتضى الكتاب والسنّة في تتبع آثار القوم.

إنّ نجاتنا تكمن في المحافظة على الأخلاق الإسلامية المستمدة من شريعتنا الغراء ؛لأنّ التصوف بصفة عامة يتمثل في الأخلاق الفاضلة التي تخلّق بها الرسول صلى الله عليه وسلّم،ومدحه بها ربه في كتابه العزيز.

لقد تركنا الرسول صلى الله عليه وسلّم على المحجة البيضاء،والشريعة الغراء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك.

لذا يجب على السالك لهذا الطريق الشريف أن يلزم نفسه الأدب مع الله عزّ وجلّ ومع الرسول صلى الله عليه وسلّم. وفي هذا يقول أحد العارفين: «من ألزم نفسه آداب الله، نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره وأفعاله وأخلاقه «.(3)

والتصوف في نظر الثعالبي،وغيره من العارفين بالله،هو مراقبة الله عزّ وجلّ في الظاهر والباطن،والخشية منه ،والخوف والخضوع والخنوع له،وتجريد القلب لله تعالى ،واحتقار ما سوى الله تعالى، وملازمة العبودية له،ودوام المراقبة،ومجاهدة النفس الأمارة بالسوء،ومعرفة أحوالها،فمعرفة العبد لنفسه من أولى ما عني به المتصوفون وآكده؛ إذ لا يعرف

ربه إلا من عرف نفسه قال تعالى:(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) (4) وفي هذا المعنى يقول أحد العارفين.» أعرفهم بالله أشدهم مجاهدة في أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه. (5)

كما حذروا من الغفلة التي تبعد العبد عن الله فأعظم الغفلة: غفلة العبد عن ربه عز وجل، وغفلته عن أوامره، وغفلته عن آداب معاملته.

والحق أنّ ترويض النفس على الكمال والخير، وفطامها عن الضلال والشرّ يحتاج إلى جهد ورقابة،وطول حساب. فنفوسنا في أشد الحاجة إلى مزيد من المعرفة الحقيقية التي تنور القلوب بمعرفة خالقها.

إنّ الهدف الأسمى من التصوف هو التماس القدوة الحسنة من خلال إبراز القيم والمبادئ التي دعا إليها علماء السلوك،،وعاشوا في ظلالها الوارفة، وجاهدوا من أجلها، وماتوا في سبيلها،لأنّ التماس القدوة الحسنة في الجانب الروحي، من صميم العبادة،ومن الأهداف الرئيسة التي حثّ عليها القرآن الكريم (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)(6) والجهاد في الله: يعني بذل النفوس

والأموال، وجهاد العدوّ إذ يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فصابرهم على المكاره، فغلبوه فباعوا النفوس والأموال فأعتقوا من رق الهوى ونجوا من أهوال الحساب.

أي: لنطرقنّهم إلى مكاشفات العلوم ولنسمعنّهم غرائب الفهوم، ولنوصلنّهم إلى أقرب الطرق إلينا بحسن مجاهدتهم فينا (7)

هذه بعض معاني التصوف التي كانت شعار الأوائل، والتصوف النقي هو جوهر الإسلام ولبابه.وليس التصوف الرقص والطرب وغيرها من السلوكات السيئة التي راجت عند بعض الطوائف الذين يظنون أنهم يحسنون صنعا.ويحضرني قول بعضهم في هذا المعنى:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه
ولا بكاؤك إن غنى المغنـــونا
ولا صياح ولا رقص ولا طـرب
ولا ارتعاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كــدر
وتتبع الحق والقـــرآن والدينا
وأن ترى خاشـــعا لله مكتئبا
على ذنوبك طول الدهر محـزونا (8)

إنّ بصمة شيخنا الثعالبي رضي الله عنه في كتابه:(الجواهر الحسان) غلب عليها الجانب الروحي،ففي كلّ آية من كتاب الله،إلاّ وله وقفات منيرة في التصوف ،والشواهد أكثر من أن تحصى ،ولا يمكن أن تستوعبها هذا المداخلة ،ولكن لا بأس بالاستئناس ببعض آرائه في هذا الجانب،وشيخنا من الذين يتحرون النقل في نقل أقوال العلماء مع الدّقة في ذكر المصادر التي أخذ منها.وفي ذلك يقول: «وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت،وعلى لفظ صاحبه عولت، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه.»ولم يكتف بهذا القول،بل أكده مرّة أخرى عند انتهاء الكتاب فقال:» ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر، فليراجع الأمهات المنقول منها، فليصلحه منها، ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزلل من حيث لا يشعر. ويضيف مرة ثالثة قائلا: نقلته عنهم بألفاظهم متحريا للصواب، ومن الله أرتجي حسن المآب. (9)

وهذه ميزة أخرى تحلى بها علماؤنا الأوائل في نقل أقوال العلماء، وهي من باب الأمانة العلمية التي هي من صميم الدين .

ولكني لم ألتزم هذه المصادر التي أشار إليها الشيخ في نقله للخبر، بل اكتفيت غالبا بما جاء في كتابه السالف الذكر:(الجواهر الحسان).

وقبل الخوض في مجال التصوف يجدر بنا الحديث عن النية لأنها هي الأساس في جميع الأعمال، فبها ينال المرء من الثواب ما لا يمكن حصره،ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،والله ذو الفضل العظيم.

وقد بيّن الشيخ مكانة النية في قبول الأعمال،فأثناء شرحه لقول الله عزّ وجلّ:(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)(10) قال: النية والعمل؛ بهما تمام العبادة ، فالنية أحد جزأي العبادة ، لكنها خير الجزأين ، ومعنى النية إرادة وجه الله سبحانه بالعمل..ومعنى إخلاصها تصفية الباعث عن الشوائب.....

وإذا عرفت فضل النية ، وأنها تحل حدقة المقصود ، فاجتهد أن تستكثر من النية في جميع أعمالك؛ حتى تنوي بعمل واحد نيات كثيرة . (11)

ومما لا شكّ فيه أنّ «ثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم أن قد صار المقربون متنعمين بالنظر إلى وجهه الكريم. (12)

وبعد معرفتنا لمكانة النية في الإسلام،ومضاعفتها للأعمال في ميزان الشرع ،والحث عليها في جميع الأعمال،إذ لا يقبل عمل شرعي بدون نية خالصة لله.

أماّ حديث الشيخ عن الولي الذي هو أصل هذا البحث وجوهره،فهو أساس التصوف،فبينه لنا بمزيد من التحليل،مقتديا في ذلك بآثار السلف الصالح الذين تعرضوا لمعرفة الولي الحقيقي.فيقول الشيخ في وقفاته الصوفية في قول الله عزّ وجلّ: (وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)(13)حيث استشهد بقول القشيري الذي وضّح معنى لفظ الولي،قائلا: اسمه تعالى: «الولي» ، أي: هو المتولي لأحوال عباده.

وقيل: هو من الوالي، وهو الناصر.

وبعدها شرع في معرفة الولي قائلا:» فأولياء الله أنصار دينه، وأشياع طاعته،والولي: في- صفة العبد- من يواظب على طاعة ربه، ومن علامات من يكون الحق سبحانه وليه- أن يصونه، ويكفيه في جميع الأحوال، ويؤمنه، فيغار على قلبه أن يتعلق بمخلوق في دفع شر أو جلب نفع بل يكون سبحانه هو القائم على قلبه في كل نفس، فيحقق آماله عند إشاراته، ويعجل مآربه عند خطراته، ومن أمارات ولايته لعبده: أن يديم

توفيقه حتى لو أراد سوءا، أو قصد محظورا- عصمه عن ارتكابه، أو لو جنح إلى تقصير في طاعة، أبى إلا توفيقا وتأييدا، وهذا من أمارات السعادة، وعكس هذا من أمارات الشقاوة، ومن أمارات ولايته أيضا أن يرزقه مودة في قلوب أوليائه. (14)

لقد تعرّض الشيخ الثعالبي في هذه الآية الكريمة لمعرفة الولي الحقيقي مبرزا أهم صفاته المتمثلة في الطاعة،والمواظبة عليها،والتقوى فالتقوى هي المفتاح الحقيقي للولاية،وبها يصل العبد إلى مبتغاه.

بينما الألوسي رضي الله عنه يعزز من رأي الثعالبي في حقيقة معرفة الولي الصالح حيث ركّز على اتباع الشريعة الغراء،وسلوك المحجة البيضاء،فمن خرج عنها قيد شبر بعد عن الولاية بمراحل فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي، ولو أتى بألف ألف خارق.(15)

ومن خلال هذه الشواهد نرى علماء السلوك قد اتفقوا على اتباع الشرع الذي هو المقياس الحقيقي للولاية، فكلّ من خالف الشرع قدر أنملة فلا يعد وليا لأنّ الولي من ينصر دين الله بمعرفة وعلم مع الوقوف عند حدود الله.

وقد وقف الشيخ وقفة تدبر ،وتأمل حول الذكر،والتفكر لأنّ بالذكر تطمئن القلوب،وبه تستأنس بخالقها وفي القرآن آيات كثيرة تدلّ على مكانة الذكر وفضله.

أماّ التفكر فهو فريضة شرعية ألزمنا الشرع بها وفي كتاب الله عزّ وجلّ آيات كثيرة تحثنا على التفكير والمتتبع للقرآن الكريم يجد مبتغاه في كل من الذكر والتفكر.

والمتتبع لأحايث الرسول يجد الكثير حول التفكر،وفي الأثر قال صلى الله عليه وسلم: (لا عبادة كتفكر) (16) وروي عنه (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) (17). وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكر.

قال مالك: وهو من الأعمال، وهو اليقين قال الله عز وجل: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (18) قال ابن رشد: والتفكر من الأعمال كما قاله مالك (رحمه الله) ، وهو من أشرف الأعمال لأنه من أعمال القلوب التي هي أشرف الجوارح ألا ترى أنه لا يثاب أحد على عمل من أعمال الجوارح من سائر الطاعات، إلا مع مشاركة القلوب لها بإخلاص النية لله (عز وجل) في فعلها.

ولا بأس أن نعرف رأي شيخنا في الذكر والتفكر فأثناء بيانه لقول الله عزّ وجلّ:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (19)

قال» وهذا وصف ظاهره استعمال التحميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحضر القلب اللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات.وقد دلت هذه الآية على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر.

فالذكر :هو نهاية ثمرة الدين في الدنيا،وتحصيل معرفة الله، وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى، والأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر. (20)

ثم إذا حصل الأنس للذاكر بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل هو الذي يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر إلا ذكر الله عز وجل.

وقال الحسن: الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته(21) فمقام الذكر لا يصل إليه إلاّ أصحاب النفوس العالية التي وطّدت نفسها على الاستئناس بالذكر.

وعليه فالفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت، فلا إضاءة له.وقد قال بعض المحققين: وذلك أن الإنسان إذا تفكر، علم، وإذا علم، عمل. (22)

وقد تتبع الرازي رضي الله عنه الآيات التي تحدثت عن الذكر،فوجدها تدلّ على أن مقام الذكر مقام عال شريف في العبودية، لأنه وقع الابتداء به، ومما يدل على كماله أنه تعالى أمر بالذكر فقال:(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)(23) ثم قال:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)(24)ثم قال:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)(25)

ثم قال:(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)(26) فلم يبالغ في تقرير شيء من مقامات العبودية مثل ما بالغ في تقرير مقام الذكر. (27)

وبعد عرضنا للآيات الدالة على فضيلة الذكر الذي به تحيا القلوب،وبه يصل العبد إلى ربه.فعلى السالك إلى الله أن يعمر وقته بذكر الله مع التدبر والتفكر.فإذا استنار القلب بنور معرفة الله صار العبد في معية الله،فاستغراق القلب في معرفة الله،تتجلي أنوار معرفة الله عليه.

إنّ أصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله تعالى:(يَذْكُرُونَ اللَّهَ) إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله:(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)(28) إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله:(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(29) إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقا في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جناب الملك الغفور(30)

والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: (وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ)(31)،وهذه مرتبة السر، والمخافتة.

وقال الفخر:المراد بقوله تعالى:(وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ) (32) كونه عارفا بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه، مستحضرا

لصفات الجلال والعظمة، وذلك أن الذكر باللسان، إذا كان عاريا عن الذكر بالقلب، كان عديم الفائدة.وقوله تعالى:(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)(33) يدل على أن الذكر القلبي يجب أن يكون دائما، وألا يغفل الإنسان لحظة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية.قال صاحب»الكلم الفارقية» غفلة ساعة عن ربك مكدرة لمرآة قلبك فكيف بغفلة جميع عمرك.

وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله رحمه الله: لا تترك الذكر، لعدم حضورك مع الله فيه،لأن غفلتك عن وجود ذكره، أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة، إلى ذكر مع وجود يقظة.(34)

وقوله سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)(35) قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي في كتابه الذي ألفه في «السلوك»:»واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه، وتزكيتها، وطرق التزكية وإن كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشائخ التربية.والذكر وإن

اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنى من معانيه اختصاص بنوع من التحلية والتخلية، والتزكية.

وقسّم الذكر إلى قسمين فقال:» ذكر العامة، وذكر الخاصة. أما ذكر العامة، وهو ذكر الأجور، فهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من ذكره لا يقصد غير الأجور والثواب، وأما ذكر الخاصة، فهو ذكر الحضور، وهو أن يذكر العبد مولاه بأذكار معلومة، على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خلق ذميم، وتحليتها بكل خلق كريم.

وعليه فالذي تيقّظ قلبه،وانتبه من سبات الغفلة لم ير في وقته سعة لغير ذكر ربه، واستشعار عظمته، ومهابته، والإقبال على طاعته، ما في وقت العاقل فضلة في غير ما خلق له من عبادة خالقه.(36)

قال النووي في «حليته»: والمراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود، ولهذا كان المذهب الصحيح المختار استحباب مد الذاكر قوله: «لا إله إلا

الله» ، لما فيه من التدبر، وأقوال السلف، وأئمة الخلف في هذا مشهورة.

قال الشيخ العارف أبو عبد الله الساحلي المالقي: ومنفعة الذكر أبدا إنما هي تتبع معناه بالفكر ليقتبس الذاكر من ذكره أنوار المعرفة، ويحصل على اللب المراد، ولا خير في ذكر مع قلب غافل ساه، ولا مع تضييع شيء من رسوم الشرع، وقال في موضع آخر. «ولا مطمع للذاكر في درك حقائق الذكر إلا بإعمال الفكر فيما تحت ألفاظ الذكر من المعاني، وليدفع خطرات نفسه عن باطنه راجعا إلى مقتضى ذكره حتى يغلب معنى الذكر على قلبه، وقد آن له أن يدخل في دائرة أهل المحاضرات. (37)

وقد أشار الغزالي في «الإحياء» إلى هذا المعنى فقال : من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب، فليستغرق أوقاته في التلاوة والذكر والتفكر في حسن المآب، ومن أراد أن ترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته، فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته. (38)

أماّ الحديث عن الخشوع في الصلاة ومكانته،فقد بيّن فيه أقوال الأئمة،أثناء شرحه لسورة (المؤمنون) فقال:»

وقد نص بعض أئمتنا على وجوب الخشوع في الصلاة، قال الغزالي :- رحمه الله-: ومن مكائد الشيطان أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لتمتنع عن فهم ما تقرأه، واعلم أن كل ما أشغلك عن معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها.الإحياء

فقال: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (39)والخشوع: التطامن، وسكون الأعضاء، والوقار، وهذا إنما يظهر في الأعضاء ممن في قلبه خوف واستكانة لأنه إذا خشع قلبه خشعت جوارحه.

قال الغزالي: واعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان، ونتيجة اليقين الحاصل بعظمة الله تعالى، ومن رزق ذلك، فإنه يكون خاشعا في الصلاة وغيرها فإن موجب الخشوع استشعار عظمة الله، ومعرفة اطلاعه على العبد، ومعرفة تقصير العبد، فمن هذه المعارف يتولد الخشوع، وليست مختصة بالصلاة.

وقد دلت الأخبار على أن الأصل في الصلاة الخشوع، وحضور القلب، وأن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في المعاد.

وبعدها بيّن المعاني التي بها تتم حياة الصلاة ،فجمعها في ست جمل، وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء، فحضور القلب: أن يفرغه من غير ما هو ملابس له.

والتفهم: أمر زائد على الحضور، وأما التعظيم، فهو أمر وراء الحضور والفهم.وأما الهيبة، فأمر زائد علي التعظيم، وهي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم.وأما التعظيم، فهو حالة للقلب تتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله سبحانه وعظمته، والثانية: معرفة حقارة النفس

ثمّ بيّن لنا كيفية حضور القلب ،فقال:» واعلم أن حضور القلب سببه الهمة، فإن قلبك تابع لهمتك، فلا يحضر إلا فيما أهمك، ومهما أهمك أمر، حضر القلب، شاء أم أبى، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة، لم يكن متعطلا بل يكون حاضرا فيما الهمة مصروفة إليه. (40)

وقد بسط القول في الصلاة حيث أفاض فيها إضافات طويلة لا يسمح لنا البحث أن تعرّض لها وللمزيد في هذا الجانب يمكن تتبع الشيخ في تفسيره.

فمهما حضرت نية من هذه النيات، فالجهر أفضل، وإن اجتمعت هذه النيات، تضاعف الأجر، وبكثرة النيات يزكو عمل الأبرار وتتضاعف أجورهم» (41)

هذه بعض آراء الشيخ في التصوف الصحيح الذي هو من صلب ديننا الحنيف،فكلّ ما تعرّض له،إلاّ وله شاهد من كتاب الله وسنّة رسوله،وأقوال السلف. فأول شيء بنى عليه الصوفية طريقهم: اتباع السنة،واجتناب ما خالفها.والانقطاع عن الخلق،والالتجاء لله عزّ وجلّ ، وفي هذا يقول المرسي رضي الله عنه يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق،... ثم قال:ورفع الهمة عن الخلق: هو ميزان ذوي الكمال ومسبار الرجال، كما توزن الذوات كذلك توزن الأحوال والصفات. (42) فرفع الهمة عن الخلق، والاكتفاء بالملك الحق، وعدم الشكوى فيما ينزل إلى الخلق.هو ركن من أركان طريق التصوف، بل هو عين التصوف. (43)

ولكن الذي قطع العباد عن ربهم،وحجب قلوبهم عن النظر إلى الآخرة: تهاونهم بأحكام ما فرض عليهم في قلوبهم، وأسماعهم، وأبصارهم..ولو وقفوا على هذه الأشياء

وأحكموها، لأدخل عليهم البر إدخالا تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما رزقهم الله من حسن معونته وفوائد كرامته. (44)

وعليه فإنّ أحوال الصوفية توزن بميزان الشرع،فما كان موافقا للشرع فهو صحيح وما كان بخلاف ذلك فهو بعيد عن الشرع.ولا شكّ على أن بعض الصوفية على الحق،وأن منهم من هو على الطريق المستقيم من العمل بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وبذلك عالجوا أمراض قلوبهم وحرسوها، وراقبوها وعرفوا أحوالها، وتكلموا على أحوال القلوب كلاما مفصلا كما هو معلوم.ويضرب أمثلة بذكر بعض أسماء السلف كالجنيد وغيره. (45) ويحذر من مغبة الخائضين في نسبة الضلال إلى الصوفية فقال:»فالحكم بالضلال على جميع الصوفية لا ينبغي، ولا يصح على إطلاقه، والميزان الفارق بين الحق، والباطل في ذلك هو كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -. فمن كان منهم متبعا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أقواله وأفعاله، وهديه وسمته، كمن ذكرنا وأمثالهم، فإنهم من جملة العلماء العاملين، ولا يجوز الحكم عليهم بالضلال. وأما من كان على خلاف ذلك فهو الضال.إذ دخل التصوف المفاسد وتطرقت إليه البدع من جهة

قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح، وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي،ولا فهم لمقاصد الشريعة،وتقولوا على القوم ما لم يقولوا به، حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى غير ما أتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

الهوامش:

1.الرسالة القشيرية 1/ 18

2.كتاب الاعتصام للشاطبي 1/ 66

3.نفسه:1/ 70

4.سورة الذاريات ،الآية:21

5. الاعتصام للشاطبي (1 / 129):

6.سورة العنكبوت،الآية:69

7..قوت القلوب في معاملة المحبوب 1/ 210

8.المدخل لابن الحاج المدخل لابن الحاج 4/ 24

9. تفسير الثعالبي،الجواهر الحسان في تفسير القرآن 1/ 118

10.سورة الأنعام،الآية:52

11.ينظر: الغزالي : الإحياء (11) و تفسير الثعالبي 1/ 468

12 تفسير الرازي،مفاتيح الغيب أو التفسير 3/ 21

13.سورة الشورى، الآية:28

14. تفسير الثعالبي،الجواهر الحسان في تفسير القرآن5/ 161

15.تفسير الألوسي 8/ 104

16.تفسير القرطبي وابن عطية

17.نفسه

18.سورة آل عمران،الآية:191

19.نفس السورة،الآية192

20.إحياء علوم الدين 2/ 250

21. الجواهر الحسان في تفسير الثعالبي2/ 150

22.نفس الرجع :2/ 152

23.سورة البقرة،الآية:152

24.سورة الأحزاب،الآية:**41**

25.سورة آل عمران،الآية:**191**

26.سورة الأعراف،الآية:**201**

27.الرازي مفاتيح الغيب **1/ 230**

28.سورة آل عمران،الآية:**191**

29.نفس السورة،والآية

30.الرازي مفاتيح الغيب **9/ 459**

31.سورة الأعراف،الآية:**205**

32. نفس السورة، والآية

33. نفس السورة، والآية

34.الجواهر الحسان في تفسير القرآن**3/ 110**

35.سورةالأنفال،الآية:**2**

36.الجواهر الحسان في تفسير القرآن **3/ 114**

37. نفسه:**1/ 424**)

38. نفسه:**3/ 113**

39.سورة المؤمنون، الآية:**2**

40.الجواهر الحسان في تفسير القرآن **4/ 142**

41.سورة الأحزاب،الآية:**41**

42.الجواهر الحسان في تفسير القرآن **3/ 503**

43.البحر المديد في تفسير القرآن المجيد **2/ 622**

44.الاعتصام للشاطبي **1/ 122**

45.أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن **4/ 88**